

الاستنتاج العام (أهم النتائج) يمكن القول أن التصوف تجربة دينية متأصلة في الإنسان بحكم طبيعته و حمله الأمانة منذ بدء الخليقة فقد قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون ﴾. و جاء في كثير من كتب التفسير ليعبدون بمعنى "ليعرفون" و بذلك كانت المعرفة و هي غاية التصوف هذا للإنسان بفطرته و إن اختلف أفق المعرفة ونوعها باختلاف مستويات الأفراد. و من ثم فسعي الإنسان نحو المعرفة إنما هو تطلع للحقيقة التي خلق من أجلها. و هي تجربة أساسها الأخلاق. فكلما تخلى المتصوف عن صفاته المذمومة و فرغ قلبه من الاهتمام بالأكوان و تحلى بالصفات المحمودة و امتلأ قلبه بالأنوار التي يقذفها الله في قلبه، كلما تحققت له المعرفة التي يطلق عليها الصوفية "التجلي". و قد اتضح من الدراسة دور التصوف الفعال في التأثير على المريد بتغيير اهتمامه و من ثم تغيير قيمه و بذلك يجمع التصوف في المجتمع الجزائري بين "الدين الحركي الديناميكي و الدين السكوني الإستاتيكي". و الاختلاف في الطرق إنما هو في المقام الأول اختلاف في المناهج و السبل مع الاتفاق في الهدف. و أسفرت الدراسة عن أن اختلاف المناهج ناتج عن اختلاف المشايخ و ذاتية التجربة الصوفية بما يتفق و شخصية المريد و حاله و طبيعته و اتجاهاته فالتصوف كوجود و حقيقة وجدانية يسمو عن أن يكون صدى للبيئة التي تعيش فيها فيكون كنمط و شكل و تنظيم حسب كل مجتمع و طبيعته. و قد أظهرت نتائج الدراسة الميدانية اتجاه الطريقة نحو الاهتمام بالجانب الأخلاقي لتخليص النفس من الصفات المذمومة و تحليلها بالصفات المحمودة و ما يترتب على ذلك من تغيير في شخصية الفرد و انعكاس هذا التغيير على تفكيره و قيمه و عاداته و اتجاهاته و أنماط سلوكه المختلفة مع أفراد مجتمعه سواء الصغير أو الكبير. و إن كانت النتائج قد أظهرت أن التغيير محدود بالنسبة لانعكاس سلوك الفرد على زوجته و أبنائه فإن ذلك يرجع إلى أن غالبية من تناولهم البحث يتراوحون بين النفس اللوامة و النفس الملهمة. و أسأوا الظن بهم مطلقاً، و الحكم، و تعطلت معالمها. و صفاء قلوبهم، و نقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، و أجروا عليها حكم القبول و الانتصار لها و استظهروا بها في سلوكهم، و هؤلاء أيضاً مفردون في نظرتهم. و الطائفة الثالثة: و هم أهل العدل و الإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، و ردوا ما يرد. (1)، ومهما قل و اختلف رجال الصوفية فهذا لا يدل على انقطاعهم، فالعدد معلوم لا ينقطع حتى ينقطع الدين(2). فالتصوف كظاهرة له وجود في المجتمع الجزائري بوجود المشايخ الذين لا ينقطع وجودهم إلا بانقطاع الدين. أما ظاهرة "الطرق" فقد اختلفت باختفاء الكثير من المقومات الضرورية لوجودها. كانت الطريقة الشيعية أفضل نموذج للدور الذي يمكن أن تقوم به مثل هذه المؤسسات الثقافية الدينية في المجتمع الإسلامي، بعيدة عن مشاغل المجتمع من حولها، بل كانت حية تعيش حياة الناس، تتدبر شؤونهم وتتدخل لحل مشاكلهم، وأفضل مثل لذلك هو المقاومة المسلحة الثانية أعلنها الشيخ بوعمامة البوشيخي سنة 1881. والشيخ بوعمامة هو النموذج الذي عمل لدنياء كما عمل لأخراه ضمن هذه المؤسسة، وزرع فيهم الحب والأخوة، فخلدته الذاكرة الشعبية، لأنه مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ، لكن تاريخيته ودينيته لم تمنعه من أن يكون مقدساً، وقديسته هذه يستمدّها من المهمة الملقة على عاتقه، وهي الجهاد في سبيل الله، ولارتباط نسبه بالولي الصالح سيدي الشيخ وبجده البعيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ونحن لا نعني هنا تقديس الطريقة الشيعية وإبعاد كل خطأ عنها، بل هي طريقة صوفية تشارك بقية أخواتها في كثير من أمور الدنيا والآخرة سلباً وإيجاباً، ولكننا نعني قيامها بدور فعال في القرن التاسع عشر عندما تعرضت البلاد لأبشع احتلال في العصر الحاضر وبخاصة في عهد الشيخ بوعمامة الذي كرس حياته لخدمة البلاد والعباد، ولهذا وجب التذكير بذلك والتنويه به، أي أن دور الأفراد هام في كل فترة من فترات التاريخ. ولما كانت الجماعة الصوفية جماعات دينية تهتم بالشعائر باعتبارها العامل الوحيد الذي يؤدي إلى التماسك الاجتماعي داخل الجماعة وباعتبار أن هذا العامل من العوامل التي يمكن إدراكه فكان لا بد من أن يكون هذا الفرض أساس الدراسة الميدانية. والمواكب، والاحتفالات، والعهد هو إلزام بين المريد و شيوخه بالقرابة الروحية وقد يكون فردياً أو جماعياً، وهو رمز يفرض على الجماعة تقديسه لأنه يفرض درجة عالية من الاحترام لاحتوائه على قيم الجماعة ومن الرموز الموجودة في العهد أن يد الشيخ المصافحة أثناء العهد تعتبر بمثابة رمز ليد الله لدرجة يصبح معها من الصعب على المريد مخالفة أوامره وتعاليمه، وقد إتضح قوة الدور الذي يلعبه الشيخ في المحافظة على تماسك الجماعة وشعيرة "الذكر" قد تكون فردية أو جماعية وهذه الشعيرة تؤدي إلى الالتزام بالطاعة داخل الجماعة وتطلق عليه إصطلاح "الحضرة" وتنظم الجماعة طريقة تأدية الحضرات وتحديد مواعيدها وأما إقامتها وكيفية تنظيمها، وتعتبر تأدية الحضرات من أهم الأنشطة الشعائرية للجماعة ودليل قوي على أنتماء الأعضاء. وقد اتضح في ضوء الاتجاه البنائي الوظيفي وجود علاقات متبادلة بين كل الظواهر والنظم السائدة في الجماعة وإن قيام التداخل والتفاعل والتساند بين هذه الظواهر والنظم وظيفته تماسك الجماعة فقط أثبتت النتائج أن الشعائر ليست العامل الوحيد الذي يعمل على تماسك الجماعة، فمن العوامل الأخرى التي تؤدي إلى تماسك الجماعة علاقات القرابة

الشعائرية Ritual Kinship التي لعبت دوراً هاماً وتعتبر أهم من القرابة الطبيعية وتتدرج تلك القرابة الشعائرية في بناء سلمي روحي إلى أن تصل إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي تربط بين الشيخ وبينه وكيه ونوابه وخلفائه ومريديه وقد استخدمت الجماعة القيم التي تؤكد القرابة الشعائرية فالعهد يقوم بدور كبير في تدعيم القرابة الشعائرية وتأكيداتها بحيث إذا نقض المريد عهد شيخه انفصمت عرى القرابة الشعائرية، وقد تمثلت القرابة الشعائرية في الأبوة الروحية التي لها السلطة والسيطرة على جميع المريدين ويجب إطاعتها طاعة مطلقة، والأخوة الشعائرية أخوة اجتماعية لا تقوم على روابط الدم وتفرض على أعضائها كثيراً من الالتزامات والواجبات المشتركة شبيهة بالالتزامات المفروضة على الأخوة الدموية وقد تفوقها، وتقوم القرابة الشعائرية داخل الجماعة بدورها في تماسك الجماعة ولتأكيد التماسك وزيادة درجته تسعى الجماعة إلى تكوين علاقات قرابية طبيعية بين أعضائها مستخدمة في ذلك نظام الزواج والمصاهرة بهدف العمل على انتشار مبادئ الجماعة وزيادة عدد أعضائها. والعامل الثالث هو وجود نظام خاص للتهادي ولا يعتبر نظام تبادل الهدايا نظاماً اقتصادياً، ويربط جميع أعضاء الجماعة بهذا النظام الذي يطلق عليه مصطلح "الزيارة" والتي يتم توزيعها بالتساوي على جميع الأعضاء في الاحتفالات والاجتماعات الدينية ويعطي هذا شعوراً بالمساواة داخل الجماعة رغم اختلاف درجاتهم في السلم التنظيمي، وهذا النظام يعتبر رمزاً يدل على ترابط الجماعة وتماسكها ومشاركة أعضائها في تقديم العون والمساعدة للأعضاء المحتاجين والمرضى وفي الاحتفال بالمولد. وهذا النظام يؤدي أيضاً إلى زيادة شعور الجماعة بالتضامن المتبادل وتشجيع لدى أعضائها شعورهم بالذات عن طريق التفاخر بانتماثلهم للجماعة وهذا العامل هام في إيجاد التماسك ولا يمكن إنكاره. والعامل الرابع: ولكي تحافظ الجماعة على استمرار بقائها وضعت نظاماً قائماً على علاقات الضبط الاجتماعي تمثل في سلطة الشيخ أو نوابه أو خلفائه على مريديه وردود الفعل داخل الجماعة نفسها من أعضائها تتمثل في عقلها الجمعي، وضبط خارجي تمثل في تأثير الشيخ على أعضاء الجماعة في مجتمعاتهم المحلية بالإضافة إلى أن شعورهم بالانتماء إلى الجماعة يجعلهم دائماً لا يأتون بسلوك قد يضر بسمعة الجماعة. وقد وضعت الجماعة قانوناً ينظم أعمالها إشتمل على مواد لمعاقة كل من يخرج على هذا القانون بالإضافة إلى العرف الصوفي الذي يمثل في احترام كبار السن والمركز في السلم التنظيمي داخل الجماعة، وتندرج الجزاءات في هذا القانون من اللوم والتوبيخ والاستهزاء و "المناصفة" (الانصاف)، وقد يصل إلى الإيقاف والطرده الذي يعتبر أقسى وأشد أنواع الجزاءات ونادراً ما تمارسه الجماعة إلا في حالة قيام العضو بمخالفة خطيرة تؤدي إلى تصدع الجماعة وفقدان تماسكها والإساءة إلى سمعتها، وقد ظهر من النتائج إن أعضاء الجماعة قد تشترك في تحمل الجزاء الذي يفرض على أعضائها تخفيفاً عنهم، وإحساساً منهم بالمسؤولية الجماعية، ويلتزم أعضاء الجماعة بقانونها التزاماً أخلاقياً مبعثه طلب رضا الجماعة وخشية استنكارها لتصرف العضو المسيء ونبذه ولاكتساب رضا الشيخ لأن مخالفته إنما هي مخالفة الله وانقطاع لمدد الشيخ، وعليه فلا يمكن إنكار علاقات الضبط الاجتماعي داخل الجماعة كعامل من عوامل التماسك.

والعامل الخامس اتضح في أن الجماعات عملت على تماسكها نتيجة انضمام أعضاء جدد لعضويتها من المهنيين والأطباء والمحاسبين والمدرسين والضباط والجنود وغيرهم من المتعلمين، وقد عملت على مسايرة العصر الحديث فهي لا تستعمل زياً خاصاً غير لباس للرأس "عمامة" توضع على رؤوس كبار السن من أعضاء الجماعة في حلقات الذكر ولا يلتزم بلبسها المريدون الشبان، وتوضع أوسمة خاصة في الاحتفالات كرمز على تماسك الجماعة وتمييزاً لها عن الجماعات الأخرى، وقد تغير شكل ومضمون بعض حلقات الذكر التي كانت تعقدها الجماعة أسبوعياً إلى ندوات تناقش فيها مشاكل أعضاء الجماعة كما تغيرت النظرة إلى شيخ الطريقة، فلم تعد "الكرامات" هي مقياس الحكم عليه، وإنما أصبحت محبة المريدين أعضاء الجماعة والتفافهم حوله وسهره على راحتهم هي الأساس الذي ينظر به الأعضاء إلى شيخهم. ولقد شمل التغير أيضاً حياة الشيخ من حيث أثاث بيته المجهز بأحدث الوسائل العصرية، وتنفي الجماعة صفة التزمت عن الدين، فالتزمت في نظرها يؤدي إلى الشك، والدين يسر لا حرج فيه ولا مشقة، ويساير أعضاء الجماعة ركب التغير ويزاولون أعمالاً مختلفة ويشتركون في كل جوانب الحياة تأكيداً للمبدأ الإسلامي "لا رهبانية في الإسلام" ويحدث اختلاط في القيم داخل الجماعة بين القديم الممثل في كبار السن وأعضائها والحديث الممثل في المريدين الشبان بحيث يتعرف القديم على الأفكار الحديث كما يستفيد الجديد من خبرات وتراث القديم، ويتعاون الاتجاهان معاً بدون تنافس لتطویر الجماعة وبدون غلبة أحد العنصرين على الآخر وبحيث لا تستغني القيم الجديدة عن التراث القديم كله ويتم تعديل المراكز والأدوار بصفة مستمرة لمواجهة التغير الكمي والكيفي في حجم العضوية ولكن لم يؤدي ذلك إلى زوال البناء الاجتماعي التقليدي للجماعة كما يتميز به من قدرة على البقاء والاستمرار في الوجود، وهذا عامل هام آخر مهم من عوامل التماسك. القرابة الشعائرية، علاقات التهادي، علاقات الضبط الاجتماعي، ومسايرة التغير ومعايشة العصر وكلها عوامل

تتشابك وتتفاعل وتتساند وتؤلف حياة الجماعة ككل وتعمل في اتساق للمحافظة على استمرار وحدة الجماعة كما أن للجماعة بناءها الاجتماعي القائم على مبدئين أساسيين متكاملين ، الأول هو مبدأ الاستمرار في الزمن ويصدق ذلك على الجماعة وعلى العلاقات الاجتماعية الموجودة داخل بنائها ، والمبدأ الثاني هو أن العلاقات الثابتة المستمرة التي تقوم بالضرورة بين الجماعة المتماسكة - تتخذ شكل مجموعة من النظم الاجتماعية التي تؤدي إلى تماسك الجماعة. وهي تحافظ على بنائها وتعمل دائما إلى التوفيق بين الظروف الطارئة ونظمها بحيث تعمل هذه النظم والعلاقات الاجتماعية على تماسك الجماعة وتضامنها ويظل بنائها الاجتماعي محتفظا بخصائصه الأساسية من حيث القدرة والاستمرار والبناء لمدة طويلة. وإذا أمكن هذه النتائج على الجماعات الشيعية المختلفة حسب المناطق لوجود تشابه بينها وبين بعض الجماعات الصوفية الأخرى لاتفاقها في المبادئ الأساسية التي وضعها "سيدي الشيخ" إلا أنه لا يمكن أن تعميم هذه النتائج على الطرق الصوفية بالرغم من التشابه القائم بينها في بعض النظم الاجتماعية بالإضافة إلى كونها جماعات دينية صوفية لأن لكل جماعة أوضاعها المختلفة وظروفها الخاصة بها ويجب دراستها كل على حده. كذلك أسفرت الدراسة أن الذكر والإناث احتل المكانة الأولى في جذب أفراد الطريقة الشيعية للطريق ويليهِ شخصية الشيخ ومكانته ثم محبة الأخوان لبعضهم البعض . وللطريقة الشيعية دور واضح في التربية والتنشئة الاجتماعية للفرد، إلا أن امتداد هذا الدور بالتأثير على أفراد الأسرة والمجتمع قد انحصر في أقلية من ذوي المراتب العالية في الطريق الصوفية و بذلك فالطريقة ذات تأثير على الفرد بتغيير شخصيته وفكره ومعتقداته شاملا صفاته وسلوكه دون تعدي هذا الأثر ليشمل الأسرة . أما عن الأدوار الاجتماعية التي تقدمها الطريقة إلى جانب الدور الديني فيمكن أن نجملها - بما توصل إليه البحث - في الأدوار التربوية والتعليمية والنفسية والعلاجية كدور التصوف في الضبط الاجتماعي وتحقيق الاستقرار الاجتماعي من حيث تأثير قدرته على الفرد للكيف والتأقلم مع الوسط الاجتماعي أو البيئة التي تفرض عليه فالتصرف قوة دافعة للفرد والمجتمع. وأظهرت الدراسة أن مريدي الطريقة الشيعية أكثر اهتماما وتركيزا على التخلي عن الأمور الباطنية المنهي عنها والتحلي بالأمور الباطنية المأمور بها، وليس التصوف مجرد رداء خارجي يرتديه العابد أو مجرد مظهر سلوكي يمكن ملاحظته أو مجموعة مصطلحات و عبارات تجري على ألسنتهم، وإنما التصوف مجاهدة النفس للتخلي عن الصفات المذمومة والتحلي بالمحمودة التي أمرنا الله عز وجل بها سواء في العقيدة أو الأخلاق، لذلك يدعو التصوف إلى إيجاد إنسان جديد في أخلاقه ومثله ومعتقداته ومعاملاته واجتماعياته. وأظهرت الدراسة الميدانية الأثر الاجتماعي الواضح لدور الطريقة في الضبط الاجتماعي من خلال لجوء المريدين وأهليهم وجيرانهم وأصدقائهم للشيخ بما له من تأثير عليهم لبركته ومكانته المرموقة في كافة المشاكل وأكثرها تعقيدا بهدف بحثها وإزالة أسبابها، وفض المنازعات والتوفيق بينهم، باعتباره أفضل من يتدخل في هذه المسائل وكان هذا اتجاه غالبية من تناولهم البحث. وأظهرت الدراسة قوة وتأثير الضبط الخفي على المريدين وهو القائم على الضبط الذاتي من داخل المريد والمتوقف على مراقبته لنفسه والالتزام بقواعد الطريقة وآدابها باطنا وظاهرا، فهو بذلك يتضمن نوعي الضبط معا إذ يمثل الضبط الظاهر جزءا منه: فطريق المريد قائم أساسا على علاقته بالله وكل ما دون ذلك ما هو إلا وسائل للوصول للغاية المنشودة، بذلك كان نمط الضبط الخفي أكثر ملائمة لهذه العلاقة التي ليست في حاجة إلى نمط الضبط الظاهري الذي يحكم باقي العلاقات الدنيوية. فمن استطاع أن يحقق الضبط الذاتي حقق معه الضبط الاجتماعي (الخارجي). وتوصلنا من خلال الدراسة الميدانية إلى الإجابة عن التساؤلات التي طرحناها في الإشكالية وخاصة الفرضية القائلة بإمكانية مساهمة الطرق الصوفية والزوايا في التمرکز السكاني والامتداد المجالي والجغرافي حيث بتتبنا للزوايا والطرق الصوفية من خلال الواقع وجدنا بأنه ازداد نفوذها وعظم شأنها فازدهرت حتى تحولت إلى مدن وممالك، و تماسين وطولقة، والأبيض سيدي الشيخ. ويضاف إليها أضرحة العلماء والصلحاء مثل: "عريان الرأس وأبي الفضل والنبي خالد" كما ذكر العياشي، فلا تكاد تحصى، وهكذا عرفت جميع مدن الصحراء استقراراً كبيراً وتوافقا وتماسكا، وأصبحت الطرق الصوفية تتعدى وتتجاوز الحدود الجغرافية والمجالية للمدن والدول والأقطار، ونحن نعرف تاريخيا مدى تأثير التصوف والطرق الصوفية في نشر الإسلام في كامل إفريقيا الغربية والسودان، وهكذا بقيت محافظة على كيائها ببقاء الإسلام على مر العصور، ونحن اليوم في القرن الواحد والعشرين، ومازلنا نلاحظها تزداد تماسكا وترابطا وازدهارا، ويزداد نشاطها الفكري، الديني الروحي والحضاري بصفة عامة، فامتد الإرث الثقافي بين كامل القبائل والزوايا إلى أن شمل أقطارا عديدة ودولا وقارات مازالت شاهدة على ذلك.